المعرفة الصوفية لدى بونافنتورا

م.د. أسماء جعفر فرج

الجامعة المستنصرية: كلية الآداب / قسم الفلسفة

الملخص:

يرى بونافنتورا أن العالم يعد نوعاً من السلّم الصوفي والذي ينبغي على الإنسان أن يصعد درجاته, وأنّ اعلى مرحلة هي التي تعود الى المعرفة الصوفية, وأن الهدف من التصوف هو الصعود في المدرجات المتي تؤدي إلى الله، وإذ أن الإنسان ورث الخطيئة الأصلية من آدم, فإن المنفس بعد الخطيئة في حاجة إلى تطهير, وهذا التطهير لا يمكن أن يأتي إلا من سلطة أعلى, أي من الله, وذلك بفضل منحة إلهية، هي اللطف الإلهي. وبفضل تحرير المنفس من الشر ثم إشراقها المداخلي وأخيراً اتحادها مع الله, تعود للنفس صورتها الإلهية الأصلية. وقد قسم بونافنتورا المعرفة إلى درجات: إيمان الجاهل بما يأخذه بالتقليد عن أهل العلم, ويلي ذلك المعرفة الفلسفية والمعرفة اللاهوتية لمن تهيأت عقولهم لإدراك حقائق العالم المادي وأحكام العقيدة, و تأتي المعرفة الصوفية الذوقية الإلهامية اعلاهم والمتي ينعم فيها العارف بمعاينة النور الإلهي ويبلغ القداسة.

الكلمات المفتاحية (المعرفة, العقل ,الايمان, التأمل, الإشراق)

Abstract

Bonaventure sees the world as a kind of mystical ladder that man must ascend, and the highest stage is that which returns to mystical knowledge, and the goal of mysticism is to ascend the degrees that lead to God. But the soul after sin needs purification, and this purification can only come from a higher authority, that is, from God, thanks to a divine gift, which is divine grace. Thanks to purification, enlightenment, and perfection, the soul returns to its original divine image. Bonaventure divided knowledge into degrees of faith of the ignorant in what he takes by tradition from the people of knowledge, followed by philosophical knowledge and theological knowledge for those whose minds are prepared to perceive the truths of the material world and the rulings of faith, and then comes the mystical knowledge of taste and inspiration in which the knower enjoys

the vision of the divine light and attains holiness

Keywords (knowledge, mind, faith contemplation, enlightenment

المقدمة

كانت اوغسطينية القرن الثالث عشر ا لميلادي أول ن ظام فلسفي شرعي يسيطر على هذا القرن, كان نظاماً محافظاً معادياً لكل الم صادر الجد يدة ومعت مداً في الغا لب ع لى أعمال أوغسطين مع إعطاء ها طابعا أفلاطون ياً، كا نت تختل ف عن أوغ سطينية المرا حل المب كرة من ال قرون الوسطى, وتهتم بالتص وف وبالا سكولائية.. و قد طور ها العل ماء الفرن سيون, عل ماء ماث سمى بـ " المدر سة الفرنس سكانيةالقديمة" وأ برز مم ثل لهذه المدر سة هو القديس بونافنتورا. الذي وضع نظريته الإشراقية لضمان يقين المعر فة لان العقل و حده لا ي ستطيع الو صول الى المعرفة اليقينية بدون عون من الله. فالله حاضر في النفس بوصفه حقيقة ماثلة فيها ومصدر لكل الحقائق.

حاولت أبين في هذه الدراسة أن م عالم المعر فة ال صوفية لدى القديس بونافنتورا حيث ق سم الب حث ع لى ثلا ثة مبا حث وخا تمة, عر ضت في المب حث الأول: فل سفة ولاهوت القديس بونافنتورا وكذلك مشكلة المعر فة، و من ثم تناولت في المبحث الثاني العالم في فل سفته وم وضوع الايمان والعقل، أما في المبحث الثالث فتركزت الدرا سة على موضوع المعرفة الصوفية فتناولت نظرية التامل لدى القديس بونافنتورا ومسار النفس نحو الله وموضوع الحب والاشراق.

المبحث الأول : فلسفته ولاهوته

أولاً: حياته ومؤلفاته

و لد ال قديس بو نافنتورا قرب فيترب بايطال يا سنة ١٢١٢م , وب عد أن درس الف نون ا لحرة في باريس (١٢٣٦– ١٢٤٣) , انخرط في السلك الفرنسيسكاني سنة ١٢٤٤. وأ صبح معل ماً, ودرس اللا هوت في باريس من سنة ١٢٤٨–١٢٥٥. ثم في سنة ١٢٥٧ , أنت خب قيّ ماً عاماً لسلكه , وفي سنة ١٢٧٣ ر فع الى مرت بة كاردي نال □ أسقف في البانو . مات في ١٥/ تموز ١٢٧٤.

من مؤل فات بو نافنتورا : ك تاب شرح "الح كم" و بريفيلوكيوم, ومسار النفس نحو الله , ومحاضرات حول" الاكزاميرون". (*جونو,إدوار: الفلسفة الو سيطة ,تر جمة علي زيعور, ص ١٢٠)*

كان ال قديس فرن سيس رئي ساً للرهب نة الفرنسي سكانية, وبعد وفاته تفرعت الفرنسي سكانية الى ا تجاهين , ال تزم أصحاب الا تجاه الأول بآراء ال قديس فرن سيس ومن عوا تأسيس مدر سة أ خرى , وأ كدوا ع لى ال عيش في الف قر والتسول والاستعانه بالناس ومعوناتهم من أجل م ساعدة المنبوذين من المجتمع ومجال ستهم. أ ما الا تجاه الآ خر فأكدوا تأ سيس د ير ومدر سة و كذلك م صاحبة الع مل

للمبا حث اللاهوت ية. ول كن في نها ية الم طاف ائت لف اصحاب الاتجاهين, وتكون اتجاه يعنى بالحياة العلم ية والرهبنة والمباحث اللاهوتية و تدريس العقا ئد الدين ية واعتمدوا المنهج المدرسي الـ سكولائي في ترويج عقا ئدهم الدينية. كان بو نافنتورا من أ صحاب الا تجاه الـ ثاني, وحين تزعم الرهبـ نة الفرنسيـ سكانية د عم هذه المدر سة وأرسى قواعداً لنظام فلسفي لا هوتي ت سود فـ يه مـ فاهيم عرفان ية ومـ فاهيم من الفل سفة الأفلاطون ية المحد ثة والأوغـ سطينية. *(مجمو عة مؤلفين :اللا هوت المعاصر ,٢٠١٧ .ص ١٥٦)*

كان صديقاً لتوما الأكويني وكان ملما بأرسطو الما ماً تا ماً ولكنه كان يعتـ قد بأن تـ عاليم أر سطو لا تت فق وا لمدين المـ سيحي و لذلك كا نت رؤيـ ته الفل سفية تعت مد عـ لى الافلاطون ية الاوغـ سطينية، لم يط مح في خـ لق مفاهيم جديدة ولكنه سعى الى بقاء المفاهيم القديمة , كان ذهناً ثاقباً يجمع ما بين الاسكولائية والتصوف والفلسفة اللاهوتية . (فواد سواف , تاتاركيفتش, فل سفة الغـ صور الوسطى, ترجمةمحمد عثمان ,ص ١٩٣)

ثانياً: مشكلة المعرفة

يرى بو نافنتورا أن لـ لنفس مـ عرفتين أو عقـ لين : عـ قل أدنى , وعقل أعلى , فهي تتـ جه بجزئـ ها الأد نى نحو المحسوسات, وبجزئـ ها الأعـ لى نحو ذاتـ ها و نحو الله, لذلك ليست كل معر فة مـ صدرها ا لحواس. فيـ جب أن يقصر هذا على الاشياء التي توجد صورها في النفس على نحو مجرد, وليـ ست هي مجردة في حقيـ قة وجود ها, فالعقل المنفعل يتجه إلى الصور الخيالية و يجرد بمعو نة العـ قل الفـ عال, فيـ قدم المـ عاني للعـ قل الفـ عال يتأمـ لها, وبونافنتورا وضع العقلين في النفس ويـ قول: (صحيح أن الله هو النور الذي ينير كل إنسان, وأنه الفاعل الأول في كل فعل مخلوق, ولكن ا لنفس ليـ ست منفعـ لة فحـ سب, فإن الله منح كل مخـ لوق قوة فاعلـ ية يحـ قق بـ ها فعـ له ا لخاص) *(يو سف , كرم : تاريخ الفل سفة الأورب ية في العصر الو سيط ص ١٢٦)* هذا عن العـ قل الأد نى, أ ما العـ قل الأعـ لى فمو ضوعه الأ شياء المفار قة للـ مادة كالله وصفاته وا لنفس وأفعا لها, وكـ يف يـ سبق لهذه الأ شياء وجود في الحس.*(المصدر نفسه , الصفحة نفسها)*

ويقسم بونافنتورا المعرفة على ثلاثة أنواع:

١- حسية, وهي التي تدرك الأمور المادية بواسطة الحواس .

٢- علمية , وهي التي تستند إلى التجريد العقلي .

٣- توحكمـ ية و هي ا لتي تـ ستعين بالا شراق الإلهي .

والمعرفة الحسية لا تتم بمجرد انتزاع النوع من مدركات ا لحس, لأن ا لنفس فاعـ لة وليـ ست منفعلة فقط في حالة المعرفة الحسية, بناء على المبدأ الميتافيزيقي الذي يقول : " إن الأدنى لا

يمكن أن يؤثر في الأعلى " والمحسوس أدنى من النفس لأنه مادي بينما المنفس روحية . والذي يحدث في المعرفة الحسية هو أن العضو الحاس ينفعل أولا بالاجسام, ثم ترد المنفس هذا الفعل فتقوم بنشاطها المذاتي , وذلك بتكوين الأنواع والكليات بوجه عام. (*عبد المرحمن , بدوي موسوعة الفلسفة ,ج١ . ص ٣٨٤*)

ولا توجد في المنفس معرفة فطرية ولهذا يقول : "إن العقل هو مثل صفحة بيضاء " ويستند بونافنتورا هنا الى مايقوله ارسطو عن التجريد لكنه لا يأخذ بالتمييز الارسطي بين العقل المنفعل والعقل الفعال, لأنه لا يريد أن يتصور العقل منفعلا خالصا, ولهذا يؤكد ان كليهما يؤثر في الآخر فعلا وانفعالا, وليس احدهما انفعالا خالصا, لكن ادراك الحقيقة لا يتم في نهاية الامر إلا بواسطة نور غير مخلوق هو الاشراق الإلهي على المنفس. فالنفس, في كل فعل من أفعال المعرفة تحيل الشيء الى العلة الأزلية, الى قيمته المطلقة الثابته في الوجود المطلق , وهو الله , اي في صورته النموذجية , والغائية هي التي تقود الصيرورة في العقل .(*المصدر نفسه , ص ٣٨٤*).

فنادى بونافنتورا بوجود عناصر فوق الطبيعة في عملية المعرفة, ونحن نعرف الحقائق الخالدة , والحقائق الخالدة توجد في الله ولا يمكن مشاهدتها إلا في المذات الإلهية , ولا يرى الله إلا من منح هبة الاشراق. نحن لا نعرف الأشياء بشكل مباشر وإنما عن طريق نماذجها المثالية الخالدة والموجودة في المذهن الإلهي , فحتى الأشياء الفطرية تعرف عن طريق الضوء فوق الطبيعي. وهكذا انتقل بونافنتورا من التجريبية الى نظرية الاشراق الصوفية . (*فواد سواف , تاتاركيفتش, فلسفة العصور الوسطى , ترجمة محمد عثمان ,ص ١٩٤*).

فوفقا لتقسيمه المعرفة الى درجات ثلاث , كما ذكرنا , تكون الدرجة الثالثة هي الغاية والمبتغى حيث انها (المعرفة الصوفية الذوقية الإلهامية المتي ينعم فيها العارف بمعاينة النور الإلهي ويبلغ القداسة.) ؛(*فراج, عبده , معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى, ١٩٦٩ ,ص ٢٠٦*)

المبحث الثاني: الله والعالم عند القديس بونافنتورا

أولا: الإيمان والعقل

غاية العقل الوصول إلى اليقين وهي الغاية عينها المتي يسعى لها النقل, فالهدف مشترك بين كل من الفلسفة والدين, لكن الاختلاف يبدأ من نقطة الانطلاق فالدين يبدأ من حيث تنتهي الفلسفة والفلسفة تبدأ من حيث ينتهي الدين. ففي نظر اوغسطين الإيمان هو الذي يمدنا

بالأساس الذي لا بدّ أن يبدأ منه طلب الحكمة، فجعل الإيمان سابق على العقل، ومعين له، فانه يطهر القلب ويجعل العقل اقدر على البحث وأسرع قبولاً للحق، فيقول:

" آمن لكي تعقل" ويعلق أوغسطين فيقول :" اعقل لكي تؤمن".*(جونو ,ادوار, الفلسفة المسيحية ,ت, علي زيعور , دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع, ١٩٨٢,ص ٣٤)*. وهكذا لا يلغي الإيمان المسيحي العقل , ولا يقتل الفكر, فلم ينادِ اوغسطين بحلول الايمان محل العقل وإنما نادى بتكامله، فالإيمان والعقل يكملان بعضهما. *(تاركيفتش, فواد سواف,فلسفة العصور الوسطى, كنوز للنشر والتوزيع ٢٠١٢, ص ٦٩)* .

والقديس بونافنتورا بوصفه رجلاً آمن بالمسيحية جعل البداية للدين, فالدين عنده أقدم من العقل بمعنى ما , لكن هذا الدين يستخدم الحجج التي يستخدمها العقل فيما بعد (اعقل لكي تؤمن), أن بونافنتورا لا يفرق بين العقل وبين الدين, إذ يرى ان العقل الإنساني نور إلهي وهو قبس من نور الله وهو أشبه برسول إلهي داخل الإنسان من مهامه حث الإنسان على النظر والاستدلال وبلوغ النور الإلهي، ولهذا يرى بونافنتورا أن العقل بوسعه أن يدرك الحقيقة الإلهية لكنه عاجز عن الإحاطة بها بمفرده (*عويضة, كامل محمد , القديس بونافنتورا بين الفلسفة وعلم اللاهوت, ١٩٩٥ ص ٧٠)*

فيرى بونافنتورا أن العقل " هوالبحث اليقيني الذي يقوم به الإنسان كي يصل إلى المعرفة اليقينية " *(نقلاعن :بدوي ,عبد الرحمن , فلسفة العصور الوسطى, ص ٩٧)* فاليقين هو الأساس أو الغاية المطلوبة من المعرفة العقلية , كذلك الحال في النقل فالمطلوب منه أن يؤدي الى اليقين بالنسبة للعقل: التعلق باليقين وضوح اليقين, بالنسبة للتعلق باليقين , فإن العقل فيه أقل درجة من النقل, فنرى بإن رجل الدين قد يضحي بحياته ويستشهد من أجل معتقداته الدينية, بينما لا نجد إنساناً يريد أن يضحي بحياته من أجل نظرية هندسية.

أما بالنسبة لوضوح اليقين فنجد فيه أن الإيمان لا يأتي بيقين واضح بل يقدم صورة أولية تحتاج إلى تفسير, أما العقل فعلى العكس من ذلك , يأتي الإنسان بيقين واضح يستطيع أن يثبته في كل تفاصيله في سهولة ودقة. أما النقل فعلى العكس : يأتي بالحقيقة الإيمانية مؤيدة بشيء واحد هو اللغة الدينية. إذ لا يوجد فيها انتقال من حقائق إلى أخرى بل هي أشياء تلقى إلقاء , وعلى الإنسان أن يؤمن بها أو يطرحها مرة واحدة, , وعلى ذلك فحيث تنتهي الفلسفة أو العقل يبدأ الإيمان. لأن الإنسان في الفلسفة أو التعقل يبدأ من حقائق تلو

أخرى , حتى يصل إلى المبادئ الأولى .وعلى العكس من ذلك نرى الإيمان يبدأ من حقيقة إيمانية أو معتقد مرسوم في الكتب المقدسة ثم يأتي البرهان بعد ذلك , فالاختلاف بين الاثنين هو اختلاف في نقطة البدء إذن .أما من حيث البرهنة فليس ثمة اختلاف تقريباً. وعليه لايوجد اختلاف بين العقل والايمان عند القديس بونافنتورا إلا من حيث بداية كل منهما فالعقل يبدأ من حقائق متسلسلة ليصل الى مبادئ أولى , والإيمان يبدأ من معتقد إيماني ثم يبرهن عليه , وبما أن العقل من خلق الله , وأنه مكمل للإيمان .والخلاصة " أن الايمان لا بدّ أن يوجد إلى جانب الفلسفة, ولا بد من لطف الوحي كي يمكن العقل أن يسير في طريقه". *(بدوي ,عبد الرحمن , فلسفة العصور الوسطى, ص ٩٧ –١٠١)*

شغلت عقيدة الخطيئة الأصلية المناقشات اللاهوتية المسيحية في العصور الوسطى , وترتبت عليها الكثير من الاعتقادات التي صارت جزءا من الاعتقاد المسيحي , وهكذا نجد القديس بونافنتورا يؤكد أن الخطيئة أفسدت روح الإنسان؛ فعليه كي يدرك الله, أن يبدأ بالخلاص من الخطيئة فيطهر نفسه عن طريق الفضائل الرئيسية التي تولد الإيمان في النفس, وهذه هي الدرجة التي فيها يدرك الإنسان الحقائق إدراكاً تاماً ساذجاً يتم عن طريق التقليد أو الثقة بأولي العرفان. إلا أن اللطف الواهب للقداسة لا يقتصر على هذا , بل يهيئ الإنسان من جديد لتلقي الغاية النهائية من الحقيقة وهي رؤية الله رؤية عيان .وهذه التهيئة تتم بأن يمنح اللطف مواهب من لدنه, ومهمة هذه المواهب على حد تعبير القديس بونافنتورا أن تهيئ النفس لقبول العيان. ثم تأتي بعد ذلك الخطوة الثالثة لتتم المكاشفة أو العيان, وفيها تكون النفس وجهاً لوجه أمام الله. ويلاحظ أن القديس بونافنتورا قد جعل اللاهوت في المرتبة الثانية التي فيها يمنح اللطف الواهب للقداسة المواهب المدنية فيهيئ النفس للخطوة الأخيرة وهي تناظر عنده التصوف, أن روح القدس في منحها لهذه المواهب تعطيها أولاً المؤمن الساذج ثم تهبها إلى رجل المدين, وأخيراً تهيئ رجل الدين لأن يتلقى الفيوض الإلهية عن طريق التصوف. وهنا لا نجد للفيلسوف مكاناً بين هذه المدرجات. فهل معنى هذا إمكان اكتفاء الفلسفة بنفسها واستغنائها عن هبات الفيض المانح للقداسة؟ أو معناه أن الفلسفة واللاهوت شيء واحد؟ هذا الشطر الاخير هو رأي القديس بونافنتورا, لان الفلسفة لا يمكن أن توجد, في رأيه, دون أن تكون متجهة في بحثها نحو الله, وهذا لا يمكن أن يتم عن طريق العقل وحده, بل لا بدّ من مدد يستمد من اللطف الإلهي. *(بدوي ,عبد الرحمن , المصدر نفسه, ص ١٠١ – ١٠٢)*.

تبدو أهمية القديس بونافنتورا في اللاهوت أكثر منها في الفلسفة , ولا يوجد من بلغ شأنه في ميدان اللاهوت

الصوفي, ومن الصعب التفريق بين الفلسفة واللاهوت في مذهبه, إذ إنه قد مزج بينهما مزجاً عميقاً, وإن كان الجانب الديني أو الصوفي هو الذي يميز فكره اللاهوتي والفلسفي على السواء, ويمكن الإشارة إلى أن السبب الأساسي في ظهور فلسفته الصوفية هو ردود الفعل على الاتجاه العقلاني الذي كان سائداً في كلية الآداب بجامعة باريس آنئذ والذي كان يهدد وجود اللاهوت والتصوف. فلقد قام بونافنتورا بالدفاع عن الدين المسيحي ضد هجمات العقليين على اللاهوت, إذ قام ببيان عجز الفلاسفة بوجه عام والأرسطين منهم بوجه خاص عن معرفة الحقيقة الكاملة. *(ابراهيم, تركي: مدخل الى الفلسفة المسيحية ٢٠٠٩, ص ٢٢٦)*

ولقد حاول أن يبين اشتراك الفلسفة واللاهوت في نفس الغاية, وأن الفلسفة لها استقلال محدود, وأنها ليست إلا مرحلة من مراحل ارتقاء الذهن الإنساني نحو الحقيقة, بينما تتمثل قمتها في التجربة الروحية التي يتحدث عنها الصوفية. ومن الملاحظ أن بونافنتورا قد استخدم المصطلحات الفلسفية استخداماً خاصاً لصالح اللاهوت. إذ كان يعطي في اعماله المتأخره للمصطلحات الفلسفية معان لاهوتية, مما دعى البعض إلى اتهامه بالخلط بين الفلسفة واللاهوت, إلا انه يمكن معارضة ذلك بأنه كان يرى أن الفلسفة إنما هي في خدمة اللاهوت. *(المصدر السابق, ص ٢٢٧)*

ثانياً: <u>العالم</u>

انتقد بونافنتورا الفلسفة الارسطية لقولها بأزلية العالم وإنكار وجود المثل في الله, كأن المحسوسات موجودات مطلقة غير مخلوقة, وهذا خطأ أساسي قاد إلى أخطاء أخرى, إنكار عناية الله بالعالم والحساب بعد الموت.

وهنا يرى بونافنتورا أن طبيعة العالم مغايرة لطبيعة الله , فالعالم لم يصدر عن الله بالطبع , فهذا يحتم القول بوجود مثل المخلوقات في الخالق, بل صدر بالإرادة, وما دام العالم لم يصدر عن ذات الله فقد أوجده الله من العدم. *(كرم , يوسف: تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط, ٢٠١٢, ص ١٢٨)*

فكانت النقاط المثلاث الكبرى في ميتافيزيقا بونافنتورا هي: الخلق, والنموذج, والإشراق, ومن ثم كان مذهبه الميتافيزيقي وحدة من حيث إن نظرية الخلق تكشف كيف ظهر العالم من الله. كيف خلق من العدم وكيف يعتمد اعتمادا تاماً على الله، في حين أن نظرية النموذج, تكشف كيف يرتبط عالم المخلوقات بالله بعلاقة محاكاة النموذج, النسخة بالمثال في حين أن نظرية الإشراق تتعقب مراحل عودة المروح إلى الله عن طريق تأمل المخلوقات الحسية, وتأمل ذاتها, وأخيرا تأمل الموجود الكامل. *(كوبلستون ,فردريك : تاريخ الفلسفة من أوغسطين إلى دنس سكوت , مج ٢, القسم الاول, ص ٣٩٩)*

وهذا الخلق لما كان من صنع الخالق فلا بد أن يكون فيه آثاره, ومعنى هذا أن ثمة تناظر بين الله والموجودات, لكن مع مراعاة الفارق الهائل بينهما، فالتناظر هنا هو بين النموذج والنسخة . ويتجلى ذلك أعلى ما يتجلى في النفس: ففيها الثالوث المذي في الله: اذ فيها ثلاث قوى : المذاكرة , والعقل, والإرادة. لكن النفس بعد الخطيئة في حاجة إلى تطهير , وهذا التطهير لا يمكن أن يأتي إلا من سلطة أعلى , أي من الله , وذلك بفضل منحة إلهية هي اللطف الإلهي . (*عبد الرحمن , بدوي موسوعة الفلسفة ,ج١ . ص ٣٨٥*)

المبحث الثالث: المعرفة الصوفية التأملية عند بونافنتورا

أولاً: <u>النظرية التأملية</u>

يرى القديس بونافنتورا في نظريته التأملية أن العالم يعد نوع من السلم الصوفي, والذي ينبغي على الإنسان أن يصعد درجاته لكي يرفع نفسه بواسطة التأمل الى الله، وقبل السقوط كان من السهولة أن ترتفع النفس البشرية إلى الخالق, أما بعده, فالأمر يحتاج تعديل قواها بالنعمة حتى تستطيع الوصول إلى السماء. وهذه القوى عددها ثلاث: الحواس الجسدية التي تحصل على لمحات من الله في الكائنات العاقلة, العقل المذي يحمل في داخله الثالوث القدوس, ونور خارق للطبيعة موجود في قمة النفس وهو المذي يمكننا من التأمل. (*القس بي , بورات : تاريخ الروحانية المسيحية العصور الوسطى , ط١ , ٢٠١٥ص ١٩٢*)

وفي هذا الصدد يقول بونافنتورا "بما أن النعمة ليس إلا ثمرًا للخير الأسمى، والخير الأسمى هو فوقنا، فلا يمكن أن يُبارك أحد ما لم يصعد فوق نفسه، ليس بصعود جسده بل بصعود قلبه. ولكن لا يمكن أن نرتفع فوق أنفسنا إلا بقوة أعلى ترفعنا. فمهما كانت المدرجات الداخلية، فلا يتم إنجاز أي شيء ما لم يكن مصحوبًا بمساعدة إلهية.... وهذا يعني السير في حقيقة الله. وينبغي لنا في النهاية أن ننتقل إلى ما هو أبدي، روحي للغاية، ، ناظرين إلى المبدأ الأول؛ وهذا يعني أن نفرح بمعرفة الله وبإجلال جلاله "

St. Bonaventure The Mind's Road to God The Catholic Primer's P 12

ويشير بونافنتورا باذنا ليس لا نملك معرفة فطرية بالموضوعات الحسية أو ماهيتها ولا بالمبادئ الأولى المنطقية أو الرياضية فإنه ينتج من ذلك أن معرفتنا بالحقائق الروحية الخالصة إنما نكتسبها من خلال الإدراك الحسي فنحن لا نعرف الله عن طريق المشابهة المستمدة من الحس, وإنما عن طريق تأمل النفس لذاتها فليس لها رؤية حدسية بالله أو بالماهية الإلهية في هذه الحياة, لكنها مخلوقة على صورة الله, وتتجه نحو الله

بالرغبة والإرادة لدرجة أن تأملها لطبيعتها الخاصة وفي اتجاه الإرادة يمكن النفس من أن تشكل فكرة الله دون أن تلجأ الى العالم الحسي الخارجي وبهذا المعنى فإن فكرة الله "فطرية". ومعرفة هذه الحقيقة أي وجود الله فطرية في النفس العاقلة بمقدار ما تكون المنفس صورة الله، وبسببها يكون لديها نزوع طبيعي نحوه ومعرفة به وتذكرة له. ذلك الذي خلقت على صورته وتتجه نحوه بطريقة طبيعية، لعلها تصل الى سعادتها معه. *(كوبلستون، المصدر السابق، ص ٣٩٠)*

لقد كان الإنسان قادراً، قبل الخطيئة، على تأمل الله والنعيم بقربه، ولكن منذ الخطيئة أصيب الإنسان بالجهل والشهوة، وبفضل الجهد والإرادة ومساعدة الفضل الإلهي يستطيع الإنسان التغلب على الخطيئة وأثرها في العقل والإرادة، ويتم ذلك بالصلاة والتأمل، فالفلسفة تمثل الأشياء، ولكن التصوف هو المذي يقود الذهن الى الحقيقة المتي يشارك فيها الإنسان *(حسن حنفي: بونافنتورا ضمن مقالات معجم أعلام الفكر الانساني، ج١، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٤، ص ١١١٧)*

ثانياً <u>مسار النفس الى الله</u>

لمن يريد الدخول إلى فكر القديس بونافنتورا عليه قراءة وتمعن كتابه " مسار المنفس نحو الله" . وقد ألف (بونافنتورا) ذلك الكتاب ١٢٥٩ على جبل الفرنا في المكان عينه الذي كان مرشده ومعلمه (فرانسوا الاسيزي) (١١٨٢– ١٢٢٦) واسمه الحقيقي (يوحنا برنادون)، كان في طفولته وشبابه محباً للدنيا وزخارفها، ثم اخذ بعد ذلك يتدرج في الزهد فيها حتى دخل في خدمة الكنيسة. وكان الفضل الاكبر في تأثيره على سامعيه راجعاً الى اخلاصه ومحبته ليسوع، خاصة عندما رآه الناس وقد تخلى عن كل شيء من متاع المدنيا. *(ابراهيم، محمد تركي،مدخل الى الفلسفة المسيحية في أوربا ابان العصر الوسيط ص ٢٢٥)* وقد رأى المصلوب الإلهي على صورة ملاك وترمز أجنحة ذاك الملاك الستة الى المدرجات الست التي يتوجب على الروح اجتيازها في سيرها نحو الله، وينطلق المسار الذي رسمه بونافنتورا من الخارج (الأشياء المحسوسة) الى الداخل (النفس)، ومن المداخل الى التسامي (الله). والأشياء المحسوسة هي آثار الله، والنفس هي صورة الله. بيد أنه يجب تجاوز الآثار والصورة معاً لبلوغ الله في ذاته . وهذا المسار لمن يكون جديراً بالإنسان إذا كان لا يدعوه إلى التجاوز، واذا كانت نهاية السفر غير قائمة فوق الانسان. ويوضح بونافنتورا أن "الصلاة هي الام والذبع لتجاوز ذاتنا". *(جونو: تاريخ الفلسفة والعلم في أوروبا الوسيطة، ص ١١٥)*.

العالم والنفس والله، تلك هي المراتب المثلاث الكبرى في الرحلة، وكل واحدة من تلك المراتب تتضمن بدورها

درجتين, إذ يمكن تأمل الله من خلال آثاره (الدرجة الاولى) أو في آثاره (الدرجة الثانية)؛ من خلال صورته (الدرجة الثالثة) , أو في صورته (الدرجة الرابعة) ؛ من حيث هو كائن (الدرجة الخامسة) أو من حيث هو خير (الدرجة السادسة) . *(المصدر نفسه الصفحة نفسها)*

الوجود خير أو حسن وتأمل الله كوجود, كمال الوجود يؤدي إلى تحقق الوجود على أنه الخير المنتشر بذاته. وبالتالي يؤدي إلى تأمل الثالوث المقدس, ولا يستطيع العقل أن يسير أبعد من ذلك , فبعد ذلك يوجد ظلام مضئ للانجذاب والتأمل الصوفي , قمة المحبة التي لا تفوق الروح. إن النفس متحدة مع الله بواسطة الحب على نحو وثيق يجعل النور الذي ينتشر فيها يصيبها بالعمى. لا يمكن أن يكون هناك سوى مرحلة واحدة أعلى محفوظة للحياة الأخرى , وتلك هي رؤية الله في السماء. *(كوبلستون : المصدر السابق , ص ٣٩٨).*

فما يرى هو قليل بل معدوم في مرآة الخلائق إذا لم تكن مرآة النفس مجلوة ومطهرة بصورة مسبقة. وبالمقابل, فإذا تم ذاك التطهير يصبح الجمال واللذة الجمالية الطريقين اللذين يوصلان إلى الله. ويصرح بونافنتورا بأن متابعة الصعود غير ممكنة بدون نعمة يسوع المسيح وأن الأهم يصبح عندها اكثر تعلقاً بتجربة في القلب أكثر مما هو تطبيق للعقل *(جونو : تاريخ الفلسفة والعلم في أوروبا الوسيطة, ص ١١٦).*

إن الله خلق نفساً عاقلة قد قدر لها السعادة الأبدية, لكنها بالخطيئة الأولى سقطت, ولا منجاة لها إلا بلطف إلهي, ونجاتها تقوم في اكتسابها للخير الأسمى, واللطف الإلهي يقوم بثلاث عمليات: التطهير, والتنوير, والتكميل, وقد رأى (بونافنتورا) أنه بفضل هذه العمليات تعود للنفس صورتها الإلهية الأصلية. إن الهدف من التصوف هو : الصعود في الدرجات المتي تؤدي إلى الله ويسلك الانسان هذا الطريق إذا استعمل قواه المثلاث : المذاكرة , العقل, الإرادة, على الوجه الذي ينبغي. واللطف الإلهي إذا نزل بالنفس تملك جوهرها وقواها معاً. إنه ينزل على حرية الإرادة وعلى الأفعال المتوقفة على حرية الإرادة, ومتى ما استولى عليها رتبها على الوجه الأتم, وثمه ثلاث عمليات تحدد حياة النفس: أن تبحث عن الله خارجها, أن تبحث عنه داخلها, أن تبحث عنه فوقها. واللطف يعيد النفس إلى داخلها, كي ترتب ملكاتها, ثم عليها أن تركز حياتها في داخلها، ويتلو ذلك أن تسعى إلى كمالها الخارق للطبيعة, أي ما فوق ذاتها, ويصف بونافنتورا هذا الطريق في كتابه (مسار النفس الى الله) ويقوم هذا كله على أساس تجربة حية شخصية. *(عبد الرحمن , بدوي موسوعة الفلسفة ,ج١ . ص ٣٨٦)*

ثالثاً: <u>الحب والإشراق</u>

حب الله هو الموضوع الرئيس الذي تتمحور حوله أفكار بونافنتورا الذي يرى أن السعادة الأزلية وحصولها يمثل غاية الإنسان في حياته الدنيوية, وأن من يجهل هذه الغاية, أو من يعرفها من دون أن ينال جوانبها الروحانية سيكون له ميل للباطل وضياع عقلي. إن الميل للسعادة هو في فطرة الإنسان, ولكن لتحقيق السعادة يجب أن يكمل العمل والتأملات النظرية بعضها الآخر, وإن العمل يتطلب الزهد والابتعاد عن القيم الدنيوية وأما فيما يتعلق بدور التأملات النظرية في تحقيق السعادة فقد كان يرى بونافنتورا بأن السعادة والبهجة هي أمور تعد ضمن الخير الأعلى, ولأن الخير الأعلى متعال يجب التعالي عن الذات لنيل ذلك الخير. أما الصعود نحو الخير الأعلى فلا يتم بالجسد, بل هو صعود بالقلب, والصعود القلبي يشمل الصعود الفكري والمذهني أيضاً. وبونافنتورا كان يرى الوحدة مع الله واكتساب السعادة تتم عن طريق الحب والإرادة , أكثر مما تكون عن طريق المعرفة والعقل.

(مجموعة مؤلفين, اللاهوت المعاصر دراسة نقدية, ط١ , ٢٠١٧ , ص ١٥٦)

على الرغم من أن بونافنتورا أقر بالتجربة الحسية والعمل العقلي المجرد , ولكنه كان يرى العقل الحقيقي في العقل الإشراقي؛ العقل المذي يتلقى الحقائق من العقل الإلهي من خلال الإشراق, ويراها في النهاية في عقل الله. بعبارة أخرى: إن درك الحقيقة عنده هو نوع من الكشف, إن عقلانيته هي الإشراق, وإذن فإن العقل الذي يجرد الحقائق كلياً عن الواقع العيني ويدعي بأنه ينال الحقيقة من خلال التعقل والاستدلالات العقلية هو ليس ذلك العقل الذي يكتسب الحكمة. *(المصدر نفسه, ص ١٥٧)*

إن الحقيقة هي مطابقة الشيء مع العقل, وللوصول إلى المعرفة اليقينية يطالب بونافنتورا بتوافر شرطين: الثبات وعدم التغير من جانب الموضوع والعصمة وعدم الخطأ من جانب المذات. ومن الطبيعي أن يلجأ بونافنتورا إلى نظرية الإشراق الأوغسطينية المتي راقت له, وذلك لإنها تؤكد في آن واحد. اعتماد العقل البشري على الله, ونشاط الله داخل النفس البشرية. فهي عنده حقيقة إبستمولوجية وحقيقة دينية في وقت واحد. شيء يمكن أن يوجد كنتيجة ضرورية لدراسة الطبيعة ومتطلبات اليقين. *(كوبلستون , المصدر السابق , ص ٣٩٣)*

يرى بونافنتورا أن المذهن البشري يمتلك ألواناً من اليقين, وإننا ندرك ماهيات ومبادئ لا تتغير, لكن الله هو وحده الذي لا يتغير وهذا يعني أن المذهن البشري يتلقى العون من الله، وأن الموضوع ومعرفته اليقينية إنما يرى بطريقة ما, وهو يضرب بجذوره في الله بوصفه يوجد في العقل الأزلي أو الأفكار الإلهية, لكننا لا ندرك

هذه الأفكار الإلهية في ذاتها على نحو مباشر ويشير بونافنتورا مع أوغسطين إلى أنك إذا ما تابعت نظرية أفلاطون, فإنك تفتح الباب أمام المذهب الشكي طالما أنه إذا ما كانت المعرفة اليقينية الوحيده التي يمكن بلوغها هي المعرفة المباشرة بالنماذج الأزلية, وإذا لم تكن لنا معرفة مباشرة بهذه النماذج, فإن النتيجة الضرورية هي أن اليقين لا يمكن للذهن البشري بلوغه (كوبلستون المصدر نفسه , ص ٣٩٣)

يعتمد الإشراق على قضية مفادها أن الانسان غير قادر على بلوغ المعرفة اعتماداً على نشاطه العقلي فقط, وإنما يحتاج الى حضور إلهي يجعل عملية المعرفة ممكنة, والحجة القاطعة التي يقدمها بونافنتورا لا يمكن أن تنشأ وتتكون بالاعتماد فقط على الاشياء والعقل, لان كلاهما قابل للتغير وعرضة للخطأ, إذن لا بدّ من انتظار إشراق النور الإلهي. ولا بدّ من الاشارة إلى أن مفهوم الضوء يمتلك أهمية خاصة بالنسبة لبونافنتورا الذي يرى أن الموجودات كلها مركبة من مادة وصورة, والمادة هي المبدأ القابل للتحديد والتعيين, أما الصورة فهي مبدأ التعيين أومبدأ التحقق, وقد تمسك بونافنتورا بنظرية تعدد الصور, وعد أن الضوء هو الصورة الأولى والأكثر نبلاً لكل الموجودات المتناهية، وهو مبدأ الكمال في الموجودات المادية كلها, وهو المسؤول عن جمالها ولونها ونشاطها. *(ياسر كمال مراد,نظرية الاشراق عند بونافنتورا,مجلة جامعة دمشق للاداب للعلوم الانسانية ,المجلد ٣٨, العدد الرابع ,ص ١٣٤).*

وفي سياق الإشراق الإلهي تم طرح العلاقة بين العقل الفعال والعقل المنفعل ؛ إذ يرفض بونافنتورا أن يكون العقل الفعال أساس المعرفة, لأن ذلك يتعارض مع قضية أساسية عنده وهي عدم وجود أي شيء بين الله والنفس الإنسانية, والنفس الإنسانية على درجة عالية من الكمال بحيث لا يمتلك أي موجود مخلوق القدرة على الإشراق عليها, أو منحها كمالها الملائم لها؛ لذا فإنها تتلقى الإشراق بشكل مباشر من الله، بالإضافة إلى ذلك يشير بونافنتورا الى الدور التكاملي بين العقل الفعال والعقل المنفعل, فالعقل المنفعل يتلقى, والعقل الفعال يجرده كما ان العقل المنفعل يمتلك أيضاً القدرة على التجريد بمساعدة العقل الفعال, وهكذا تغدو عملية التعقل واحدة يقوم بها كل من العقلين. *(المصدر نفسه,ص ١٣٧).*

ويصف القديس بونافنتورا في كتابه (مسار النفس الى الله) كيف تنتج الموضوعات الحسية الخارجية صورة مشابهة لنفسها أولاً في الوسط ثم من خلال الوسط في عضو الحس المداخلي, ويحكم الحس الجزئي أوملكة الإحساس من خلال الحس الجزئي, بأن هذا الشيء أبيض اللون أو أسود أو أيا ما كان لونه. وان الحس المداخلي هو إحساس بالمتعة او الجمال أو العكس. فالملكة العقلية تتحول نحو الواقع وتسأل لم كان الشيء

المعروض جميلاً و لماذا نحكم عليه بإنه جميل, لأ نه يمتلك خصائص معينه غير أن هذا الحكم يتضمن الإشارة الى فكرة الجمال التي هي مستقرة ولا تتغير ولا ترتبط بزمان معين أو مكان محدد, وهذا هو ما يصل إليه الإشراق الإلهي إلى العقل الإزلي المنظم. ويرى بونافنتورا أن العلل الازلية متحدة بالفعل مع كلمة الله, وينتج من ذلك إذن أن الكلمة هي التي تضيء الذهن البشري, تلك الكلمة التي تنير كل إنسان يأتي إلى العالم فالمسيح هو المعلم الباطني، ولا تعرف أي حقيقة إلا من خلاله, ليس عن طريق كلامه على نحو ما تتحدث, لكن عن طريق تنويره لنا باطنيا, وهو حاضر لكل نفس بعمق وألفه وبأفكاره البالغة الوضوح يشع بنوره على الأفكار المظلمة المعتمة الموجودة في أذهاننا. (*كوبلستون , الصدر السابق , ص ٣٩٥*). إذ يقول بونافنتورا : " عندما ابتعد الإنسان عن النور الحقيقي إلى الخيرات المتغيرة، انحنى بسبب خطيئته، وانحنى الجنس البشري بأكمله بسبب الخطيئة الأصلية، التي أصابت الطبيعة البشرية مرتين، حيث أصاب الجهل عقل الإنسان وأصابت الشهوة جسده. "لذلك يجلس الإنسان أعمى و منحني البصر في الظلام ولا يرى نور السماء ما لم تساعده النعمة مع العدل على مقاومة الشهوات، والمعرفة مع الحكمة على مقاومة الجهل. وكل هذا يتم من خلال يسوع المسيح، الذي صار لنا من الله حكمة وعدلاً وتقديسًا وفداءً"

(*St. Bonaventure , The Mind's Road to God , P 13*)

الخاتمة

– حاول بونافنتورا و من قبله اوغسطين رفض نزعة الشك، والتأكيد على وجود حقائق يقينية لا يعتريها الشك، وهذه الحقائق هي معيار المعرفة المتي نحصل عليها عن طريق الحواس.

–يرى بونافنتورا أن المذهن البشري يمتلك ألواناً من اليقين, وإننا ندرك ماهيات ومبادئ لا تتغير, (واذ ان) الله هو وحده الذي لا يتغير فهذا يعني أن المذهن البشري يتلقى العون من الله.

–ويرى بونافنتورا أنّ السعادة والبهجة أمور تعد ضمن الخير الأعلى, ولأن الخير الأعلى متعال, إذن فيجب التعالي عن الذات لنيل ذلك الخير، أما الصعود نحو الخير الأعلى فلا يتم بالجسد, بل هو صعود بالقلب, وأن الصعود القلبي يشمل الصعود الفكري والذهني أيضاً ينطلق المسار الذي رسمه بونافنتورا من الخارج (الأشياء المحسوسة) إلى الداخل (النفس), و من الداخل الى التسامي (الله). الأشياء المحسوسة هي آثار الله ، والنفس هي صورة الله، بيد أنه يجب تجاوز الآثار والصورة معاً لبلوغ الله في ذاته.

–والنفس الإنسانية على درجة عالية من الكمال بحيث لا يمتلك أي موجود مخلوق القدرة على الإشراق عليها,

أو منحها كمالها الملائم لها؛ لذا فإنها تتلقى الإشراق بشكل مباشر من الله.

–ويرى بونافنتورا أن الكلمة هي التي تضيء الذهن البشري, تلك الكلمة التي تنير كل إنسان يأتي الى العالم فالمسيح هو المعلم الباطني، ولا تعرف أي حقيقة إلا من خلاله.

–وللوصول إلى المعرفة اليقينية يطالب بونافنتورا بتوافر شرطين: الثبات وعدم التغير من جانب الموضوع والعصمة وعدم الخطأ من جانب الذات، ومن الطبيعي أن يلجأ بونافنتورا إلى نظرية الإشراق الأوغسطينية التي راقت له , وذلك لأنها تؤكد في آن واحد، اعتماد العقل البشري على الله, ونشاط الله داخل النفس البشرية، فهي عنده حقيقة إبستمولوجية وحقيقة دينية في وقت واحد, وبفضل الجهد والإرادة ومساعدة الفضل الإلهي يستطيع الإنسان التغلب على الخطيئة وأثرها في العقل والإرادة, ويتم ذلك بالصلاة والتأمل, فالفلسفة تمثل الأشياء, ولكن التصوف هو الذي يقود الذهن إلى الحقيقة التي يشارك فيها الإنسان.

المصادر والمراجع

–إبراهيم , تركي: مدخل الى الفلسفة المسيحية , دار الكتب القانونية,مصر, ٢٠٠٩.

– *القس بي , بورات : تاريخ الروحانية المسيحية العصور الوسطى , ط١ , ٢٠١٥ .*

– بدوي ,عبد الرحمن :الموسوعه الفلسفيه ,المؤسسه العربيه للدراسات والنشر ,بيروت ,ط١ ,١٩٨٤.

– برهييه، اميل ، تاريخ الفلسفة ، العصر الوسيط والنهضة، ج٣، ت ، جورج طرابيشي،دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ط ١، ١٩٨٣.

– تاتار كيفتش ، فواد سواف ، فلسفة العصور الوسطى ، ت محمد عثمان مكي العجيل ، كنوز للنشر والتوزيع ٢٠١٢.

– *حسن حنفي :بونافنتورا ضمن مقالات معجم أعلام الفكر الانساني , ج١, الهيئة المصرية للكتاب , ١٩٨٤ .*

– جونو وبوجوان ، تاريخ الفلسفة والعلم في اوربا الوسيطة، ت، علي زيعور وعلي مقلد، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

– عويضة, كامل محمد , القديس بونافنتورا بين الفلسفة وعلم اللاهوت, ١٩٩٥

– راسل، برتراند ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الفلسفة في العصور الوسطى ، الكتاب الثاني ، ت نجيب محمود ، دار التنوير، ط ١، ٢٠١٨.

– فراج، عبده ، معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى (فلسفة اسلامية ومسيحية)، مكتبة الانجلو المصرية، ط١ ،١٩٩٦.

– *كرم , يوسف: تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط, ٢٠١٢ .*

– كوبلستون , فردريك , تاريخ الفلسفة من أوغسطين الى دمس سكوت, المجلد الثاني , القسم الأول, ط١– القاهرة, ٢٠١٠.

– مجموعةمؤلفين , اللاهوت المعاصر دراسة نقدية, ط١ , ٢٠١٧

– **St. Bonaventure , The Mind's Road to God ,The Catholic Primer's** – 2005